غيرة جامعية !

كنت أحيانًا – وبالذات بعد أن عاد هو وأمى إلى مصر نهائيا – أحكى له عن بعض متاعبى فى عملى ، فكان يقول لى : « لا تشغلى بالك بالموضوع واتركى هذا الشخص لربنا يجازيه وانظرى ماذا سيفعل به ربك . كنت أرى أبى دائما لا يسىء إلى أحد لا بالكلام ولا بالتصرف ، وكان يعمل ليلا ونهارا ويعيش حياته « فى حاله » كما يقولون . والظاهر أن نوع حياته ثم نجاحاته الكثيرة وحب الناس له كانت من الأشياء التى تثير الغيرة فى بعض الناس فيحاولون مضايقته . وأذكر على سبيل المثال أنه بعد أن عاد إلى مصر من الكويت عُيِّن أستاذا غير متفرغ فى قسم التاريخ بآداب القاهرة أى فى القسم الذى تخرج منه ثم عُين فيه مدرسا ثم حصل على الأستاذية منه . وكان طول عمره يعتز بأستاذيته بجامعة القاهرة أكثر من اعتزازه بأى منصب آخر حصل عليه . المهم كان أستاذا غير متفرغ لأنه كان يعمل بالصحافة وله محاضرتان يلقيهما فى تخصصه إحداهما للسنة الرابعة والثانية فى السنة التمهيدية للماجستير . وكان إقبال الطلبة على محاضراته – كالعهد به دائما – شيئا لافتا للنظر . وحدث أنه كان هناك من يطمع فى محاضرتىْ أبى هاتين وبالذات أن معظم الخريجين الذين كانوا يستكملون

دراساتهم العليا كانوا يفضلون التسجيل لنيل درجتىْ الماجستير والدكتوراه مع أبى وكان ذلك لا يعجبهم بطبيعة الحال فلم تكن المسألة مسألة محاضرات ، لأن القسم فى ذلك الحين كانت به محاضرات أخرى كثيرة وكان من حظ الطلاب فى رأيى أن يدرس لهم أبى . المهم ، استمر هؤلاء « الزملاء » – وهم أصغر منه سنا وأدنى مكانة – فى محاولات إبعاده عن تدريس مواد تخصصه . وعُين رئيس قسم لَبى لهم طلبهم فلم يجدد له فترة أخرى للاستمرار فى شغل منصب أستاذ غير متفرغ ، وحدث ذلك فى منتصف الثمانينات . ووصل الأمر لعميد الكلية حينذاك ولابد أنه رأى أن ما قام به رئيس القسم عمل غير أخلاقى ، ولكنه كانت له مصالح يجب أن يحققها ، وكان يريد الحصول على صوت رئيس القسم هذا فى مناسبات معينة فسكت على الأمر ناسيا أن لا شىء يتم فى الخفاء ولكن كل شىء مصيره أن يعرف وينكشف . وتوقف تدريس أبى فى قسمه وكليته لمدة سنة أو سنتين على ما أظن . وانزعجت أنا جدا ولكن أبى لم يفكر فى الموضوع ولم يعلق عليه ولم يشك لأحد ، بل مضى يواصل أعماله الكثيرة الأخرى وكأنه لم يحدث شىء .

وأذكر بهذه المناسبة أن اتصل بى تليفونيا بعد وفاة أبى مباشرة أحد هؤلاء الذين حاولوا أن يؤلموه فى قسمه فى منتصف الثمانينات وعزانى وقال لى إنه سيكتب مقالا فى جريدة الأهرام عن أعمال أبى فى حياته وأنه حاليا يبحث عن المراجع حتى تكون لديه مادة

يكتب عنها . فاقتصر ردى على أننى شكرته وتممت المكالمة إذ لم أكن فى حالة نفسية تشجعنى حينذاك على الكلام مع أى إنسان . وفكرت بينى وبين نفسى أن هذا الإنسان ربما أراد الآن أن يصحح خطأه الماضى الظالم فأحيانا يجىء موت إنسان ما بنتيجة هى إيقاظ ضمير من حاول الإساءة إليه فى حياته . وحدث أن الوقت مرّ ولم يكتب هذا الشخص المقال الذى كان قد وعد به فى الأهرام ففهمت أنه لم يكن أبدا يفكر فى كتابة أى شىء ولكن كل ما حاول أن يحصل عليه منى هو أن أعطيه كتب أبى مجانا .. وأنه لذلك ذكر أنه يبحث عن مراجع . ففهمت من هذا أن هذا الشخص لا أمل فى إصلاح نفسيته وسلوكه . وأذكر أننى لم أذكر هذه الواقعة فى حينها لأحد وأذكرها هنا لأول مرة .

المهم ، حدث أن مدة هذا العميد الذى وافق على عدم مد عمل أبى فى كلية الآداب انتهت وكذلك انتهت مدة رئيس قسم التاريخ والرجلان اللذان حصلا على المنصبين فى المدة الجديدة – أى بعد منتصف الثمانينات – كانا قد أدركا الأمر عندما حدث فطلبا من أبى أن يعود إلى قسمه وكليته وألحا عليه فى ذلك فعاد أبى إلى وظيفة أستاذ غير متفرغ ولكنه رفض أن يأخذ محاضرات واقتصر على الإشراف على الرسائل . وأنا أحكى هذا لكى أبيّن أن أبى صادف فى حياته من حاول الإساءة إليه بسبب الغيرة – على ما أظن – فأبى كان رجلا يعيش حياته فى حاله ولا يتدخل فى شئون غيره .

وأذكر مثالا آخر وهو أن قسمه بآداب القاهرة لم يرشحه لنيل جائزة الدولة التقديرية ومن قام بترشيحه حينذاك – في عام ١٩٨٦ – كان قسم التاريخ بجامعة الزقازيق . وحدث أن أبى رشح مرة واحدة عندما جاء وقت التصويت فى المجلس الأعلى للثقافة وافق الجالسون على منحه الجائزة بالإجماع ومن المرة الأولى . ولم يغضب أبى على المسئولين عن القسم بآداب القاهرة فى هذا الوقت أبدا بل تناسى الأمر تماما وفرح بجائزته . وأتذكر أنه كان هناك من لاحظ بطبيعة الحال أن ترشيحه لم يأت من جامعته فكان يتجنب الرد المباشر على هذا السؤال حتى لا يسىء الكلام حتى على من حاول أن يؤذيه لسبب لا يعرفه ، إذ أن أبى لم يكن له أعداء وأنا لا أتذكر أنه حاول إلحاق الأذى بأى إنسان فى حياته لا عن طريق الكلام ولا الفعل .

أذكر أن الرئيس حسنى مبارك أقام احتفالا كبيرا لتسليم جوائز الدولة التقديرية للحاصلين عليها خلال فترة الثمانينات ، وأذكر أننى تسلمتها بالنيابة عنه ، لأنه كان يعلم أنه ليس فى استطاعته صعود السلالم المؤدية إلى منصة تسليم الجائزة فى دار الأوبرا بسبب آلام ركبتيه .

وتحضرنى هنا سعادة أبى بحرية الفكر والتعبير التى نعيشها فى مصر فى عصر الرئيس حسنى مبارك وصرح بذلك فى كثير من حواراته بالراديو وكتب عنه فى مقالاته الصحفية .

وفيما يخص الرئيس الراحل أنور السادات فكان يحترم جرأته

وشجاعته فى اتخاذ القرارات الحاسمة . أذكر أنه قدم تحليلا مطولا عن « كتابه البحث عن الذات » . أما بخصوص الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فكان معجبا بشخصية الرجل ، والحقيقة أن مكتبة أبى تحتوى على كتب عديدة عن شخصية عبد الناصر نفسه . وكان متحمسا جدا للثورة فى بدايتها وفى مرحلتها الأولى أى حتى حرب السويس ١٩٥٦ .

المهم ، بخصوص الإساءة لأبى من طرف بعض « الزملاء » بقسم التاريخ الحمد لله تحسنت وانصلحت الأمور وحدها وبسرعة على يد رجال معدنهم أجود ممن سبقوهم . ومنذ ذلك الحين – أى بعد منتصف الثمانينات – ومعاملة قسمه وكليته كانت والحمد لله على ما يرام فسوء النية كان ناتجا عن أفراد قليلين اختفوا من الجامعة لسعيهم وراء مصالحهم الخاصة . وهذا يظهر أن حياة أبى لم تكن سهلة كما يبدو للبعض بل صادف صعوبات مثل كل الناس ، ولكن عرف كيف يتصرف فى المواقف الصعبة .. فنادرا ما عرفت أحدا يفهم الطبيعة البشرية ويتقبلها كما هى مثله .

كان – كما قلت – ينسى تماما من حاول الإساءة إليه ولكنه فى نفس الوقت كان دائما يذكر من مدّ إليه يد العون فكان عظيما فى اعترافه بالجميل ولا ينساه أبدا .

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان كثير الاعتراف والكلام على المعاملة الممتازة التى رآها فى معاملة كل من أسندت إليه إدارة دار المعارف

طوال مدة عمله فيها . وأذكر أنه خلال عمله فى مجلة أكتوبر جاءت له دعوة من جريدة الأهرام لينضم إلى أسرتها ويصبح كاتبا بها . فشكر كثيرا من قدم له هذه الدعوة ولكنه اعتذر قائلا : إنه سعيد بكتابته لمجلة أكتوبر ولا يستطيع أن ينسى معاملتهم له فيفضل أن يستمر معهم . وكان صريحا فى قراره مع أن حلم كل مثقف فى مصر أن ينضم فى يوم من الأيام إلى أسرة جريدة الأهرام ، ولكنه كان لا ينسى الوفاء لمن أحسن معاملته .

يحضرنى بمناسبة ما رويته عن الأهرام أن أبى كان يسهم بمقال شهرى لمجلة الشباب إلى جانب كتابته فى أكتوبر . وكان أيضا يذكر رئيس تحريرها بالخير دائما وبالمناسبة : من يستطع أن يذكر رئيس تحرير مجلة الشباب إلا بالخير ؟

ولم يذكر أبى بالخير كل من أحسن معاملته فقط بل ذكر بالخير أيضا كل من رآه يقوم بعمل صادق ونافع لمصر وأحسن دليل على هذا هو الكتاب الذى ألفه يصف فيه الكثيرين ممن رآهم فى وظائف حكومية وعملوا بصدق من أجل مصر وساهموا فى تكوينها حتى أصبحت على ما هى عليه الآن وهو كتاب جيل الستينات (١٩٩٢) وأنا أندهش عندما أرى أن مكتبة الأسرة لم تنشر هذا الكتاب ضمن الكتب التى صدرت فى مشروعها بالذات .. لأنه مشروع ناجح وسيحقق بالزمن أهدافه وهو زرع حب القراءة فى الناس ثم تعويدهم على احترام الكتاب وكان

الكتاب المذكور يزوّد القارئ بمعرفة بعض من يرجع الفضل إليهم فى إنشاء بلدنا مصر كما نراها اليوم .

ويذكرنى ذلك بموقف مذهل ومؤسف : أذكر أن أبى وأمى كانا قد رجعا إلى مصر من الكويت وكان أبى قد شحن كتبه فى صناديق لتصل مصر بالباخرة . ثم علمنا بميعاد وصولها إلى ميناء السويس وذهبت أنا معه لاستلامها . وفتحت السلطات الصناديق لكى يتأكدوا من أنها لا تحتوى على شىء آخر غير الكتب ثم لكى يروا نوعية هذه الكتب . وبعد أن تم التفتيش وكانت نصف الكتب خارج صناديقها على رصيف الميناء طلبوا منا أن نذهب لمكتب الضابط المسئول لإتمام بعض الأوراق الرسمية . فذهب أبى وحده وتركنى أحرس الكتب . ثم جاء ضابط كان قد رآنى من قبل وسألنى : « لماذا تقفين هنا ؟ »

قلت : « لأن أبى ذهب ليضبط الأوراق الرسمية ويدفع الضريبة المطلوبة » .

قال : ولماذا لا تذهبين معه ؟ »

قلت : « لأننى فضلت أن أحرس الكتب حتى يعود » .

فضحك بشدة وقال : « هل تخشين على الكتب فعلا ؟ هيا اذهبى مع أبيك وعندما ترجعين ستجدين أن عدد الكتب قد زاد » . حدث ذلك بعد منتصف السبعينات بقليل . ومن المؤكد أن مشروع السيدة الفاضلة سوزان مبارك -- وهى منشئة مشروع

مكتبة الأسرة – سوف يقضى على مثل هذا الجهل بقيمة الكتب والقراءة .

وبمناسبة ذكر الكتب أيضًا أذكر أن أبى كان يحب كتبه وكأنها أبناء له وكان يفتخر جدًا بمكتبته . وكان يعرف تماما الكتب التى فيها ويعرف أيضًا أين موقعها فى المكتبة لو بحث عن كتاب فيها حدث أنه فى عام ١٩٩١ فكر فى إهداء مكتبته لأنه أدرك أن بصره أصبح متعبا من القراءة الكثيرة ثم أنه كان يريد أن يطمئن على مصير مكتبته فى المستقبل . فاحتفظ بثلث مكتبته تقريبا وأهدى الباقى لكلية الآداب بجامعة القاهرة . وحدث أن كلية الآداب رحبت جدا بالإهداء وشكرته كثيرا على ذلك . ثم مضى وقت طويل ولم نسمع بأى خبر يشير إلى نقل المكتبة واستلامها . فبعد مرور بعض الوقت ظن أبى أنهم ربما نسوا قبولهم للهدية . فذهب إلى رئيس هيئة الكتاب – إذ كان يعزه ويحترمه حقيقة – وقال له إنه يريد إهداء مكتبته للهيئة – فرحب رئيس الهيئة بالهدية وكان سريع التصرف فى الموضوع ، وبلغ الأمر كلية الآداب فانزعجوا من الخبر جدا وقالوا : كيف يحدث هذا ؟ .. فالإهداء كان موجها أصلا لهم وهم أولى بها ، وإن كانوا قد تأخروا فى التصرف فيرجع ذلك إلى أنهم كانوا يبحثون عن مكان ملائم تنقل المكتبة إليه .

ونقلت مكتبة أبى بالفعل إلى جامعة القاهرة فى عام ١٩٩٢ وصُنفت كتبها على أرفف فى المبنى الجميل الذى بجوار شارع

النيل والذى يحتوى على مركز الدراسات الشرقية . وبعد أن تمت هذه العملية رأيت أن أبى شعر براحة وبارتياح بخصوص مكتبته فكان قد ضمن أمانها وهى فى حوزة استاذ يعرف قدر الكتاب وقيمته ، وكان أبى فى صحة جيدة عندما قام بإهداء المكتبة ولكن ربما كان يشعر حينئذ أن ميعاد رحيله قد قرب ، لأننى أتذكر الآن أنه فى نفس هذه الفترة تقريبا كتب مقالا لمجلة أكتوبر سماه « لماذا نخشى الموت » . رحمه الله كان إنسانًا حساسًا جدًّا وملحًا كذلك . أذكر أنه لم يغادر المنزل فى السنوات الثلاث والنصف الأخيرة من عمره ، لأنه كان يشعر بآلام فى رقبته فمنعه ذلك من الخروج كما أننا كنا نخشى عليه من صعود ونزول السلالم ، وكنت أنا أسكن فى البيت مع أبى وأمى وآتى له بأخبار من الخارج فقررت ألا أحكى له عن متاعبى حتى لا يحزن فكان ينزعج ويحزن من أجلى بطريقة لم يحزن بها ولا ينزعج من أجل نفسه أبدا . فكنت أحكى له ما يَسُرُّه فقط ، ولكننى كنت ألاحظ أنه كان ينظر إلى طويلا ويفهم ما يدور فى بالى .. فلا يفاتحنى فى الموضوع بل يلمح من بعيد فأفهم أنه كان على دراية تامة بما أفكر فيه أو أشعر به .

كان أول ما فعله أبى بعد عودته مباشرة من الكويت أن استلم عمله فى دار الهلال رئيسا لتحرير مجلة الهلال وكانت دار الهلال هى الدار التى كان قد بدأ فيها حياته فى الصحافة حينما كان لا يزال طالبا فى كلية الآداب وعمل فى ذلك الوقت مع جورجى

زيدان مؤسس الدار وأعلم أنه كتب قصة بداياته فى مجال الصحافة فى جزء كبير من المقالات التى كان يكتبها شهريا لمجلة الشباب فى الثمانينات المهم ، استلم أبى عمله فى دار الهلال وتحمس له كثيرا إذ كان يريد تغيير إخراج المجلة وتكبير صفحاتها وحجم الحروف التى تطبع بها حتى يُسهل القراءة فيها .

وأذكر أن أمى كانت تقود السيارة وتوصله إلى الدار بالسيدة زينب صباح كل يوم ، ثم تمر عليه مرة أخرى بعد الساعة الواحدة لكى تعيده إلى البيت ، فلم يكن هو يستطيع القيادة فى شوارع مصر ولم يطلب أن يخصصوا له سيارة بسائق وكانت أمى مهتمة بمجلة الهلال هذه مثله ، فأذكر أن أبى أضاف بالمجلة بابا اسمه « ناس وصور وحكايات » وكانت أمى هى التى اختارت معظم الصور التى ظهرت فى هذا الباب ، وكان أبى يعلق عليها على مدى أربع سنوات تقريبا وهى المدة التى عمل أبى فى دار الهلال ليتركها وينقل لدار المعارف كاتبا فى مجلة أكتوبر .

أذكر أنه كان مشغولا دائما بإعداد العدد الشهرى وأنه كان يقول إن شهره فيه يوم واحد وهو يوم صدور المجلة أول كل شهر .

وفى رأيي أن من أهم ما قام به أبى بالنسبة لمجلة الهلال فى هذا الوقت أنه أحياها فكانت قد « نامت » « ونُسيت » إن كان من الممكن استعمال مثل هذه التعبيرات لوصف حالتها فى منتصف

السبيعينات . كان أبى يعتنى جدًّا بغلاف المجلة .. وأذكر أن الفنان حسين بيكار رسم له أول غلاف لها وهو عدد يوليو ١٩٧٧ . أنه فتح مجالات كثيرة للكتابة فى المجلة حينذاك ومنها مجال كتابات المرأة التى كانت تكاد لاتذكر فى هذا الوقت وأجريت أحاديث صحفية مع السيدة أمينة السعيد رحمها الله وأحيا موضوع هدى شعراوى وتحرير المرأة ، وأجرى أحاديث أخرى مع الدكتورة لطيفة الزيات رحمها الله عن روايتها الباب المفتوح ثم حديثا آخر مع الدكتورة سهير القلماوى عن كتابها حكايات جدتى وسمى الكاتبات الثلاث الرائدات فى كتابات المرأة . وأذكر أنه عندما أرسل إليهن صحفيين لإجراء الاحاديث معهن اندهشت كل واحدة ، منهن على حدة لأن موضوع كتابات المرأة لم يكن يطرق منذ زمن طويل .

وأذكر أنه نشر رواية « أريد حلا » للكاتبة الصحفية حسن شاه وصورت هذه الرواية فيلما وفيما بعد حقق نجاحا كبيرا وأثر بعد ذلك . — كما هو معروف — على تغيير بعض قوانين الأحوال الشخصية بالنسبة للسيدات . ونشر كذلك كتابات الكاتبة كاتيا ثابت التى تتناول فيها قضايا المرأة فى سلسلة روايات الهلال مثل كتاب لاعزاء للسيدات .

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان كثير الاحترام والاهتمام بالمرأة ومكانتها ودورها فى المجتمع وكان مؤمنا بأن وضع المرأة فى مجتمعها يبين مدى تقدم بلدها أما بالنسبة لى فكان يقف معى

وقفة المحامى الجرئ القوى الغيور جدًّا فى مشاكلى الشخصية وكان يتخذ هذا الموقف أولا لأننى امرأة .. وكان يرى أننى فى حاجة إلى مساندة رجل ، وثانيا لأننى ابنته ويعرفنى ويعرف موقفى ويعرف ونسى تمامًا - رحمه الله - كان نعم الأب والصديق وكان لا يبالى بالخسائر المادية فهذه فى رأيه من الممكن تعويضها قدر حزنه على الخسائر المعنوية وانكسار النفس .

اهتم أبى أيضًا فى مجلة الهلال بموضوع التعليم الثانوى فى مصر وأضاف ملفًا خاصًّا بالثانوية العامة فى كل عدد من أعدادها الشهرية . أما من أهم الأشياء التى قام بها فى المجلة كان أن شجع الكتّاب الشبان على التأليف وعلى النشر عنده فكانوا فى ذلك الوقت يشكون الكثير من أنه لم يكن أحد يبدى نحوهم أى اهتمام .

أذكر أيضا أنه كان مهتما جدًّا بأن يكون كتاب الهلال ذا موضوع مهم وإن لم يجد موضوعا جديدًا أعاد طبع كتاب مترجم نشر من قبل .

أبى مع الأستاذ رشدى صالح وعمدة مدينة قرطبة فى أسبانيا .